0

تمهيد

مدينتي

- مئذنة النبي صالح في الرملة.

الرملة البيضاء

لقد ولدت ونشأت في مدينة الرملة، التي تقع في وسط منطقة سهل البحر الأبيض المتوسط لفلسطين. ولقد وصفت هذه المدينة في الأدب، وخاصة في الشعر، بالرملة البيضاء. لأن جدران وأسقف منازل المدينة كانت بيضاء ونقية. لذلك عندما تنظر إليها من السماء ترى لوناً واحداً هو البياض.

كما أذكر، فإن منزلنا لم يكن بعيداً عن وسط المدينة. وكان هذا المنزل عبارة عن طابق واحدٍ أبيض اللون. وكانت هناك درجات من الحجر تؤدي من الشارع إلى المنزل. وكان الجدار المواجه للشارع مبنياً من الحجر الأبيض. وكان المنزل يتكون من ثلاث غرف نوم و غرفة معيشة وغرفة للضيوف ومطبخ واسع وحمام ودورة مياه. وكان كل جدار مطلياً بلونين، الجزء العلوي منه بلون والجزء السفلى بلون آخر. وكانت غرفة الضيوف يفصلها

باب عن البلكون. وكانت البلكون تطل على حديقة تُظللها شجرة ياسمين. وكان الضيوف يستمتعون برائحة الياسمين عندما كانوا يجلسون في حجرة الضيوف أو في الحديقة.

وكانت الشجرة معروفة عند الجيران بشجرة ياسمين أبو بكر. وكانت رائحة الياسمين تُشم من أي إتجاه في الجوار، وكلما إقتربت من المنزل إشتدت الرائحة. ولذلك كان من الممكن أن تعثر على المنزل حتى لو لم تكن تعرف موقعه سلفاً. وكل ما هو مطلوب منك هو تتبع رائحة الياسمين لتصل إلى المنزل.

وكانت هناك حديقة حول المنزل. وأتذكر أنه كانت هناك شجرتا تين كبيرتان في الجزء الخلفي منها، كما كانت هناك شجرة ليمون كبيرة وقن للدجاج.

إن أمتع وسيلة للتسلية أيام الطفولة، في تلك الأيام، كانت رحلة إلى بيارات البرتقال في ضواحي المدينة، وقد إعتاد الناس في فلسطين الذهاب في رحلات في عطلة نهاية الأسبوع مع عائلاتهم وأصدقائهم.

كان العديد من سكان المدينة يملكون البيارات في الضواحي، كانت مساحتها تصل في بعض الأحيان إلى دونم (1000 متراً مربعاً) وفي أحيان أخرى تصل إلى 10 أو 20 دونماً، ويتوقف ذلك على الوضع الإقتصادي للعائلة. كان الناس يزرعون في هذه البيارات أشجار الحمضيات كالبرتقال والليمون وغيرها، أما في المناطق الجبلية فكان الناس يزرعون أشجار الزيتون أو التين أو

المشـمش أو اللوز. تشـبـه أزهار اللوز أزهـار الكرز التي تعـرف في اليابان بـ"السكورا"، وكان الناس يزرعون الأرض التي تقع حول هذه الأشجار بالخُضَر كالباذنجان والفلفل الأخضر، والبندورة والخيار والبطيخ وغير ذلك.

وكنت كثيراً ما أذهب إلى هذه البساتين والبيارات مع والدي والعائلة. وفي بعض الأحيان كان يذهب الرجال فقط. وفي كل أسبوع في الربيع وفي الصيف كان والدي يذهب مع أصدقائه. وفي أحيان أخرى كان يذهب والداي مع بعض أفراد الأسرة والأقارب والأصدقاء. ولم يكن من المعتاد أن يذهب الرجال والنساء مع بعضهم البعض، ما لم يكن ذلك مع أفراد العائلة أو الأقارب القريبين جداً.

وفي ذلك الزمن إعتادت النساء أن يغطين وجوههن بالبرقع أو المنديل، ولم تكن تخلع هذا الحجاب إلا في وجود المحارم من الأقارب القريبين جداً أو في وجود العائلة الصغيرة.

وعادة ما كان يوجد في بيارات البرتقال بيت ريفي صغير يمكن أن نستريح فيه، وأن نطهو الطعام. وكان الأطفال يسبحون في خزان مياه الري، مستخدمينه كبركة للسباحة. كما كان يحلو لهم أن يتقاذفوا حبات البرتقال.

في الربيع كانت تمتلئ البساتين والبيارات والمزارع والمنطقة كلها بالأزهار المتفتحة. والجميل أن فصول السنة واضحة جداً في فلسطين. وكل فصل يختلف عن الآخر، وذلك يساعد على تنوع

الأزهار والنباتات البرية. حيث يوجد في فلسطين ما يقرب من 2500 نوع من النباتات والأزهار البرية.

ومن الملاحظ أنه عندما يسمع اليابانيون كلمة "عرب" يتبادر إلى ذهنهم مباشرة الصحاري الشاسعة ذات الطقس الحار والجاف. وصحيح أيضاً أن هناك بعض المناطق الصحراوية في فلسطين، إلا أن فيها مناطق أخرى غنية بتنوع تربتها وطقسها. فهناك مناطق ساحلية تقع في المناطق الساحلية للبحر الأبيض المتوسط. أما المناطق الوسطى والشمالية فهي مناطق جبلية. أما في الجنوب فتوجد صحراء النقب. أما شرق فلسطين فهو جزء من منطقة الأخدود الإفريقي الكبير الذي يطلق عليه في فلسطين الغور أو وادي الأردن. كما يوجد في فلسطين البحر الميت، الذي هو أكثر مناطق العالم إنخفاضاً. حيث ينخفض إلى 400 متراً تحت مستوى سطح البحر. إن مياه البحر الميت هي الأعلى كثافة بين كل مياه البحار والبحيرات في كل العالم. حيث أن الماء ملحى جداً. حتى أنك تستطيع أن تطفوا على سطح البحر بدون بذل أي مجهود للسباحة، بل وتستطيع أن تقرأ كتاباً وأنت على هذا الوضع. وفي الحقيقة أنني قد جربت ذلك بنفسي في العديد من المرات.

تقع فلسطين على الحافة الغربية لقارة آسيا وعلى الجانب الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، ويمكن القول بأن فلسطين هي الجسر، الذي يربط بين القارات الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا، ولهذا يشار إلى فلسطين تاريخياً بأنها معبر للحضارات.

وإذا نظرنا إلى الموقع الجغرافي لفلسطين فهي تقع بين خطي العرض 29 و 33. و مساحة فلسطين هي26323 كيلو متراً مربعاً وهذا يماثل مساحة كل من جزيرة شيكوكو ومحافظة هيروشيما .

وبشكل عام، فإن مناخ فلسطين هو جزء مما يطلق عليه مناخ البحر الأبيض المتوسط. وهي منطقة مناخية أكثر إعتدالاً من المناطق المدارية.

ومناخ البحر الأبيض المتوسط ومناخ الصحراء يتقابلان فوق فلسطين. إن هذا التنوع في طبيعة الأرض يغير من درجة الحرارة طبقاً للمكان، و متوسط درجة الحرارة السنوي يصل إلى 20 درجة مئوية. وهي ليست باردة جداً في الشتاء، بل يغلب على مناخها الإعتدال شتاءً والإعتدال جداً صيفاً.

إن مياه الأمطار لها أهمية كبيرة في كل مناطق وبلدان الشرق الأوسط. وفلسطين في هذا ليست إستثناء، فمياه الأمطار مهمة جداً للحياة الإقتصادية، وتعمر المناطق التي تكثر فيها تلك المياه. والمطر عادة يبدأ في شهر تشرين الثاني ويزداد سقوطه تدريجياً مع مرور الأيام ليبلغ ذروته إما في شهر كانون ثاني أو شباط. ثم يبدأ بالإنحسار حتى يتوقف تماماً في شهر أيار. وعليه فإن هطول الأمطار في فلسطين يستمر على مدى أجزاء من ثلاثة فصول، هي الخريف والشتاء والربيع. مما يثري الزراعة كثيراً.

إن تنوع المناخ وتنوع طبيعة الأرض يسهم إسهاماً كبيراً في التنوع الملحوظ في المحاصيل والنباتات والخضر والفواكه. ويمكن القول أن ذلك أسهم أيضاً في جعل فلسطين مهداً لكثير من الحضارات.

❖ ❖ ❖

الرملة تاريخياً

يوجد في الجزء الأوسط من فلسطين وادٍ يسمى وادي الصرار. وتقع في أعلى منطقة من هذا الوادي مدينة القدس، المدينة المقدسة بالنسبة للأديان السماوية الثلاثة: الإسلام والمسيحية واليهودية. وتقع الرملة في الجزء المنخفض من هذا الوادي.

ولقد مدت السكك الحديدية ورصفت الشوارع والطرق على إمتداد هذا الوادي الطبيعي. وفي ذلك الوقت كانت خطوط السكك الحديدية قليلة في فلسطين. وفي عام 1948 كان الخط الحديدي الذي يربط الرملة بالقدس يعبر الرملة ليمتد إلى مصر جنوباً ولبنان وسورية شمالاً. وبالإضافة إلى ذلك فإن الرملة كانت تُربط بالعديد من المدن والقرى في فلسطين بطرق مواصلات جيدة. إن المسافة بين الرملة والقدس تصل إلى 45 كيلو متراً، وبين الرملة ويافا 18 كيلومتراً، وبين الرملة واللد 3.5 كيلو متر. فالرملة قريبة جداً من مطار اللد. (يطلق عليه الآن مطار بن غوريون).

- مئذنة النبي صالح على أوراق العملة الفلسطينية.

في عام 1948 كانت الرملة مدينة تجارية يسكنها حوالي 19ر000 نسمة ، وهي تقع جنوب شرق يافا وجنوب غرب اللد. وبالنسبة لخط العرض فالرملة تقع على نفس خط العرض الذي تقع عليه مدينة ميازاكي في اليابان.

ومن الناحية الجغرافية تقع الرملة في بقعة هامة جداً من فلسطين. فأثناء الإنتداب البريطاني قبل عام 1948 كانت يافا ميناء رئيسياً لفلسطين كما كانت حيفا، وكل ما تستورده فلسطين كان يأتي عن طريق هذين الميناءين، وكانت البضائع تنقل من يافا إلى الرملة ومنها إلى بقية فلسطين. ومن جهة أخرى فكل أنواع الحمضيات التي كانت تنتج في منطقة الرملة واللد وغيرها من المناطق المجاورة كان يتم تصديرها عن طريق ميناء يافا.

الرملة مدينة عربية إسلامية المنشأ، حيث أقيمت في أواخر القرن الأول الهجري على يد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، واتخذها عاصمة لجند فلسطين، وبقيت كذلك لمدة أربعة قرون تالية حتى دخلها الفرنجة في الحروب الصليبية عام 1099م.

ومنذ بدء الفترة الإسلامية، كانت الرملة مركزاً للتجارة الخارجية، حيث أنها في منتصف خط التجارة بين مصر وسوريا. وإستقر العديد من التجار في هذه المدينة.

بالإضافة إلى ذلك كانت الرملة السوق التجاري المركزي للقرى والمدن المجاورة، عندما كانت تخضع للإنتداب البريطاني.

ولقد وصف المؤرخون والرحالة، الذين زاروا الرملة، أرضها الخصبة التي وهبها الله وفرة في مصادر المياه، ولذلك كان معظم سكانها يحترفون الزراعة. إذ كانت الرملة تنتج محاصيل زراعية وفيرة من العنب والبرتقال والليمون والبطيخ والزيتون والتين والبلح والقمح والبصل والقطن وغير ذلك.

وكانت تقام أسواق هذه المحاصيل الزراعية حول المسجد الجامع الذي كان يوجد في وسط المدينة، حيث كان يوجد سوق صغير لكل محصول من هذه المحاصيل.

وتاريخياً في الأيام الماضية، كانت توجد بعض الصناعات في الرملة مثل صناعة الملابس من القطن والكتان والصوف، بجانب صناعة السجاجيد ومنتجات الألبان و زيت الزيتون والصابون وزيت

السمسم وصناعة الفخار، وأنواع من الحلوى اشتهرت بها الرملة وغير ذلك. ولقد إتسعت هذه الصناعات خلال النصف الأول من هذا القرن، ولكن ليس على نطاق كبير.

ويتضح من الناحية التاريخية أن الرملة كانت تحتل موقعاً إستراتيجياً، كما أنها كانت مسرحاً للعديد من المعارك.

وعندما غزا الصليبيون فلسطين، في فترات مختلفة، إتخذوا من الرملة قاعدة لهم. وخلال الحرب العالمية الأولى كانت الرملة قاعدة عسكرية للقوات الألمانية والتركية. وفيما بعد أقام الإنجليز مخيماً كقاعدة عسكرية لهم في موقع يقع على بعد خمسة كيلومترات من الرملة في صرفند وذلك أيام الإنتداب البريطاني.

بنيت مدينة الرملة أثناء العصر الإسلامي، ولا توجد أي إشارة إلى أن هذه المدينة قد بنيت قبل ذلك. إلا أن هناك بعض الإشارات على أنه بالقرب من الرملة كانت هناك زراعة خلال العصر الحجري، بمعنى أنه كانت هناك قرية زراعية . وفيما بعد قام الكنعانيون ببناء مدينة مكان هذه القرية وعاشوا بها، وكان يطلق على هذه المدينة إسم "جازر". ويوجد في موقعها الآن بقايا بلدة يقال لها "أبو شوشة".

هناك معنيان لكلمة "رملة"، ففي اللغة العربية تعني الكلمة حُبيبة من الرمل . وأعتقد أن إسم المدينة أُشتق من ذلك، لأن منطقة الرملة في معظمها أراضٍ رملية.

وهناك قصة أخرى تتعلق بإسم المدينة، حيث يقال أنه في أحد الأيام مر سليمان بن عبد الملك، أحد أمراء بني أمية وأمير جند فلسطين، بهذا الموقع حيث وجد مجموعة من خيام البدو فأستقر هناك للراحة. وكان البدو في هذه البقعة كرماء وأستقبلوه إستقبالاً حافلاً، وكانت مالكة إحدى الخيام بالمخيم إمرأة تسمى "رملة". أعجب سليمان بالمرأة وأراد أن يطلق إسمها على المدينة إذا ما بنيت في هذا الموقع.

وسليمان هو الذي أنشأ المدينة، فعندما كان أميراً تم تعيينه والياً لجند فلسطين، عندما كان أخوه الكبير الوليد بن عبد الملك خليفة للمسلمين. وكانت اللد في ذلك الوقت عاصمة جند فلسطين، إلا أن سليمان بنى مدينة الرملة ونقل عاصمة جند فلسطين إليها. وبعد أن خلف سليمان أخاه وأصبح خليفة للدولة الأموية، اتخذها مقراً له.

وبحلول القرن الرابع عشر الميلادي أصبحت الرملة أكبر مدينة في فلسطين. وفي أوائل القرن السادس عشر، خضعت فلسطين لحكم دولة الخلافة العثمانية، إذ بدأت أهمية الرملة في النقصان وإنحدرت المدينة تدريجياً.

وفي عام 1920 عندما تم تقسيم دولة الخلافة العثمانية بين فرنسا وبريطانيا في مؤتمر سان ريمو، وضعت فلسطين تحت

الإنتداب البريطاني واستمر ذلك حتى عام 1948. ولقد كانت مدينة الرملة عاصمة لقضاء الرملة تحت الإنتداب البريطاني. لقد كان عدد سكان الرملة 6500 نسمة أي في أثناء الحرب العالمية الأولى، إلا أنه وصل إلى 10347 بحلول عام 1931، وفي عام 1948 وصل عدد سكانها إلى ما يقارب من 11.000 نسمة.

إحتلال اليهود للرملة

وبعد ذلك نمت الرملة على إمتداد الطرق الرئيسية التي تؤدي إلى يافا وغيرها من المدن المجاورة، إلا أن هذا النمو قد تحطم في عام 1948 عندما إحتل الصهاينة الرملة، فقد طردوا بالقوة معظم سكان الرملة الفلسطينيين.

إن مساحة قضاء الرملة تحت الإنتداب البريطاني كانت 926.7 كيلومتراً مربعاً، وكان يقطنه 49075 نسمة، عام 1922، وأصبح عدد السكان 127270 في عام 1946. إذ كان النمو متسارعاً في قضاء الرملة.

قبل عام 1948 كان اليهود يملكون 13.8% فقط من أراضي قضاء الرملة، وفي عام 1922 كان عدد اليهود القاطنين بالقضاء لا يتعدى 8% من العدد الكلي للسكان، إلا أن هذه النسبة زادت إلى 22% في عام 1945. وفي عام 1948 إحتل الصهاينة مدينة الرملة

وطردوا أهلها، ولم يتمكن من البقاء في المدينة من الفلسطينيين سوى 400 شخص. ومنذ ذلك الوقت بدأت هجرة الصهاينة لإحتلال مساكن المدينة.

وقد استولى المهاجرون اليهود على بيوت أهل الرملة الذين أجبروا على النزوح منها بالقوة والتهديد والإرهاب من قبل قوات الجيش الإسرائيلي. استقروا في البيوت وهي بكامل أثاثها ومؤونتها وموجوداتها. كما استولوا على الأسواق والمؤسسات العامة والخاصة بكل موجوداتها. أي أن هؤلاء الغزاة استولوا على وطن كامل وأجبروا أهله على الرحيل بالإكراه، تاركين وراءهم وطنهم وأملاكهم ومواقع ذكرياتهم ومحاضن آمالهم.

وفي عام 1961 بلغ تعداد سكان مدينة الرملة حوالي 20548 مما يعني أن العديد من موجات المهاجرين اليهود قد أتت إلى المدينة مما خلق زيادة سريعة في عدد السكان، ولقد زحف السكان بسرعة إلى الجانبين الغربي والجنوبي الغربي، ويطلقون الآن على هذه المنطقة إسم "الرملة الجديدة". إن بضع المئات من الفلسطينيين الذين تمكنوا من البقاء يعيشون الآن مع بعض اليهود في "الرملة القديمة". ويقاسون من التمييز ويخافون من الطرد.

ومن نافلة القول الإشارة إلى أن مدينة الرملة أعطيت للعرب في خطة التقسيم التي أعتمدتها الأمم المتحدة عام 1947 (القرار

رقم 181)، وهذا هو السبب في أن إسرائيل لم تشأ أن تنمي "الرملة القديمة." وإذا ما حُلت القضية الفلسطينية طبقاً لقرار التقسيم فإن مدينة الرملة ستكون من نصيب الشعب الفلسطيني. وطبقاً لما يقوله بعض أقاربي الذين زاروا فلسطين بعد حرب 1967 فإن مدينة الرملة كانت لا تزال كما كانت في عام 1948.

ولقد أصبح تعداد سكان الرملة عام 1973 حوالي 36000 نسمة غالبيتهم من المهاجرين اليهود. وعدد الفلسطينيين الذين يعيشون في المدينة وصل إلى 4800 نسمة يعيشون في "الرملة القديمة". ولقد سمعت أن ثلاث عائلات من اليهود العرب يعيشون في منزلنا الذي ولدت فيه. وإني لأتساءل ما إذا كانت أزهار شجرة الياسمين الموجودة في الحديقة مازالت تتفتح حاملة عطرها إلى الأماكن البعيدة؟ أم أن الألم حاصرها كما حاصر أهلها من قبل؟

❖ ❖ ❖